العصر الغرناطى
(١٢٦٩/٦٦٨- ٨٩٨/ ١٤٩٢)

تسقط دولة الموحدين فى المغرب، وبالتالى تتلاشى فى الأندلس ويحل محلها ملوك طوائف يبتلعهم الشمال الإسبانى الذى صار جنوبا أيضاً، ولا تبقى غير مملكة صغيرة عاصمتها غرناطة ، ويتجمع الأندلسيون الهاربون من المدن التى أخذها العدو بجانب السكان الأصليين من عرب وبربر غرناطة. كثافة سكانية غير معقولة، ولكن هذا التجمع الأندلسى التزم بالاجتهاد والعمل، وحافظ على ميراثه الأدبى والعلمى، وتشبَّث بما بقي من الأندلس. وقد عاشت مملكة غرناطة ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان، وأنتجت عددا لا يحصى من الشعراء والكتّاب والعلماء، بل والمهندسين الذين شيدوا عجيبة الفن الإسلامى المدهشة : قصر الحمراء، حيث تمتزج الفنون : التصوير، والنحت، والعمارة، والخط العربى، والشعر، فهذا القصر صار ديوانا حيًّا إلى اليوم لشعر ابن زمرك الذى تم تسجيله على الجدران مثل كائنات حيَّة لا تتوقف عن السعى والحركة فوق تلك الجدران. أيضا هذا العصر أنتج لنا شخصيتين من نوادر رجال الفن عبر التاريخ : لسان الدين ابن الخطيب : الشاعر الكاتب المؤرخ الطبيب "الفيلسوف المتصوف"، والسياسى المحنك والقائد العسكرى المدهش. لقد تفوق ابن الخطيب فى كل تلك الفنون، وبفضله بقيت لنا صورة غرناطة فقد ترك عددا لا يحصى من الكتب (ضاع معظمها وربما أُحرق)، أهمها كتابه الموسوعى "الإحاطة فى أخبار غرناطة" ، كما أنه كان السبب غير المباشر فى أن يكتب المقَّرى كتابه العظيم "نفح الطيب" فى "محاسن لسان الدين بن الخطيب"، وهو موسوعة لتاريخ الأندلس وأدبها بشكل عام، وتاريخ غرناطة وأدبها بشكل خاص. أما الشخصية الثانية المعاصرة لابن

الخطيب، فهى شخصية ابن خلدون صاحب "المقدمة" التى أسست لعلمى التاريخ والاجتماع.

وحيث لا يتسع المقام لتقديم نماذج متبوعة أو مصحوبة بتعليقات وتحليلات تكشف عن سماتها أو ملامحها الفنية، فسنكتفى بعرض مجموعة من النماذج ثم نتبعها بعرض مجمل لأهم الخصائص الأسلوبية لشعر هذا العصر، فمن شعر ابن زمرك : [يصف فخامة آثار الأمير أبى عبد الله بن نصر]

ولله مبناك الجميل فإنه ... يفوق على حكم السعود المبانيا
فكم فيه للأبصار من متنزَّهٍ ... تجدُّ به نفس الحليم الأمانيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ... ولم تكُ فى أفق السماء جواريا
ولو مثلت فى ساحتيه لسابقت ... إلى خدمة ترضيك منها الجواريا
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا ... به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حُلّة جلّلته بحلّيها ... من الوشى تُنسى السابرى اليمانيا
وكم من قسى فى ذراه ترفعت ... على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها ... تظل عمود الصبح إذ لاح باديا
سوارى قد جاءت بكل غريبة ... فطارت بها الأمثال تجرى سواريا
به المرمر المجلو قد شفّ نوره ... فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
إذا ما أضاءت بالشعاع تخالها ... على عظم الأجرام منها لآليا
به البحر دفاع العباب تخاله ... إذا ما انبرى وفد النسيم مباريا
إذا ما جلت أيدى الصَّبا متن صفحه ... أرتنا دروعاً أكسبتنا الأياديا

وراقصة في البحر طوع عنانها ... تراجع ألحان القيان الغوانيا
إذا ما علت في الجو ثم تحدرت ... تحلّي بمرفضّ الجُمان النواحيا
يذوْب لجينٍ سال بين جواهر ... غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
تشابه جارٍ للعيون بجامد ... فلم أدر أياً منهما كان جاريا
فإن شئت تشبيهاً له عن حقيقة ... تصيب بها المرمى وبوركت راميا
فقل أرقصت منها البحيرة نبتها ... كما يُرقص المولودَ من كان لاهيا
أرتنا طباع الجود وهي وليدة ... ولم ترض في الإحسان إلا تغاليا
سقت ثغر زهر الروض عذب برودها ... وقامت لكي تهدى إلى الزهر ساقيا
كأن قد رأت نهر المجرة ناضباً ... فرامت بأن تجري إليه السواقيا
وقامت بنات الدوح فيه مواثلاً ... فرادى ويتلو بعضهن مثانيا

ومن شعر ابن الخطيب :

أصْغَى إلى الوجْدِ لمّا جَدَّ عاتبُهُ ... صب له شغل عمن يعاتبه
لم يعط للصبرِ من بعد الفراقِ يداً ... فضل من ظل إرشادا يخاطبه
لولا النّوى لم يبتْ حرّانَ مكتئباً ... يغالب الوجد كتما وهو غالبه
يستودعُ الليلَ أسرارَ الغرامِ وما ... تمليه أشجانه فالدمع كاتبه
لله عصرٌ بشرقيّ الحمى سمحتْ ... بالوصل أوقاته لو عاد ذاهبه
يا جيرةً أودعُوا إذ ودّعُوا حُرَقاً ... يصلى بها من صميم القلب ذائبه
يا هل تُرى تجمَعُ الأيام ألفتنا ... كعهدنا أو يرد القلب سالبه
ويا أهيل ودادي، والنوى قذف ... والقرب قد أبهمت دوني مذاهبه
هل ناقض العهد بعد البعد حافظه ... وصادع الشمل يوم الشعب شاعبه

ويـــا ربـــوع الحمـــى لا زلـــت ناعمـــة ... يبكـــى عهـــودك مـــضنى الجـــسم شـــاحبه
يـــا مـــن لقلـــب مـــع الأهـــواء منعطـــف ... فـــى كـــل أوب لـــه شـــوق يجاذبـــه
يـــسمو إلى طلـــب البـــاقى بهمتـــه ... والـــنفس بالميـــل للفـــانى تطالبـــه
وفتنـــة المـــرء بالمـــألوف معـــضلة ... والأنـــس بـــالإلف نحـــو الإلـــف جاذبـــه
أبكـــى لعهـــد الـــصبا والـــشيب يـــضحك بـــى ... يـــا للرجـــال ســـبت جـــدى ملاعبـــه
ولـــن تـــرى كـــالهوى، أشـــجاه ســـالفه ... ولا كوعـــد المُنـــى، أحـــلاه كاذبُـــه
وهمـــة المـــرء تغليـــه وترخـــصه ... مَـــنْ عَـــزَّ نفـــساً لقـــد عـــزَّتْ مَطالبُـــه
مـــا هـــان كـــسب المعـــالى أو تناولهـــا ... بـــل هـــان فـــى ذلـــك مـــا يلقـــاه طالبـــه
لـــولا ســـرى الفلـــك الـــسامى لمـــا ظهـــرت ... آثـــاره ولمـــا لاحـــت كواكبـــه
فـــى ذمـــة الله ركـــب للعـــلا ركبـــوا ... ظهـــر الـــسرى فأجـــابتهم نجائبـــه
يرمـــون عـــرض الفـــلا بالـــسير عـــن عـــرض ... طـــى الـــسجل إذا مـــا جـــد كاتبـــه
كـــأنهم فـــى فـــؤاد الليـــل ســـر هـــوى ... لـــولا الـــضرام لمـــا خفـــت جوانبـــه
شـــدوا علـــى لهـــب الرمـــضاء وطـــأتهم ... فغـــاص فـــى لجـــة الظلمـــاء راســـبه
وكلفـــوا الليـــل مـــن طـــول الـــسرى شـــططا ... فخلفـــوه وقـــد شـــابت ذوائبـــه
حتـــى إذا أبـــصروا الأعـــلام مائلـــة ... بجانـــب الحـــرم المحمـــى جانبـــه
بحيـــث يـــأمن مـــن مـــولاه خائفـــه ... مـــن ذنبـــه وينـــال القـــصد راغبـــه
فيمـــا وفـــى طيبـــة الغـــراء لى أمـــل ... يـــصاحب القلـــب منـــه مـــا يـــصاحبه
إن أنـــس لا أنـــس أيامـــاً بظلـــهما ... ســـقى ثـــراه عمـــيم الغيـــث ســـاكبه
شـــوقى إليهـــا وإن شـــط المـــزار بهـــا ... شـــوق المقـــيم وقـــد ســـارت حبائبـــه
إن ردهـــا الـــدهر يومـــا بعـــدما عبثـــت ... فـــى الـــشمل منـــا يـــداه لا نعاتبـــه
معاهـــد شـــرفت بالمـــصطفى فلـــها ... مـــن فـــضله شـــرف تعلـــو مراتبـــه
محمـــد المجتبـــى الهـــادى الـــشفيع إلى ... رب العبـــاد أمـــين الـــوحى عاقبـــه

أوفى الورى ذمما، أسماهم همما ... أعلاهم كرما، جلت مناقبه

هو المكمل في خلق وفي خلق ... زكت حلاه كما طابت مناسبه

عناية قبل بدء الخلق سابقة ... من أجلها كان آتيه وذاهبه

جاءت تبشرنا الرسل الكرام به ... كالصبح تبدو تباشيرا كواكبه

أخباره سر علم الأولين وسل ... بدير تيماء ما أبداه راهبه

تطابق الكون في البشرى بمولده ... وطبق الأرض أعلاما تجاوبه

فالجن تهتف إعلانا هواتفه ... والجن تقذف إحراقا ثواقبه

ولم تزل عصمة التأييد تكنفه ... حتى انجلى الحق وانزاحت شوائبه

سرى وجنح ظلام الليل منسدل ... والنجم لا يهتدى في الأفق ساربه

يسمو لكل سماء منه منفرد ... عن الأنام وجبرائيل صاحبه

لمنتهى وقف الروح الأمين به ... وامتاز قربا فلا خلق يقاربه

لقاب قوسين أو أدنى فما علمت ... نفس بمقدار ما أولاه واهبه

أراه أسرار ما قد كان أودعه ... في الخلق والأمر باديه وغائبه

وآب والبدر في بحر الدجى غرق ... والصبح لما يؤب للشرق آيبه

فأشرقت بسناه الأرض واتبعت ... سبل النجاة بما أبدت مذاهبه

وأقبل الرشد والتاحت زواهره ... وأدبر الغي فانجابت غياهبه

وجاء بالذكر آيات مفصلة ... يهدى بها من صراط الله لاحبه

نور من الحكم لا تخبو سواطعه ... بحر من العلم لا تفنى عجائبه

له مقام الرضى المحمود شاهده ... في موقف الحشر إذ نابت نوائبه

والرسل تحت لواء الحمد يقدمها ... محمد أحمد السامي مراتبه

له الشفاعات مقبولا وسائلها ... إذا دهى الأمر واشتدت مصاعبه

والحوض يروى الصدى من عذب مورده ... لا يشتكى غلة الظمآن شاربه

بحامد المصطفى لا ينتهي أبدا ... تعدداها، هل يعد القطر حاسبه؟

فضل تكلف بالدارين يوسعها ... نعمى ورحمى فلا فضل يناسبه

حسبي التوسل منها بالذي سمحت ... به القوافي وجلتها غرائبه

حياه من صلوات الله صوب حيا ... تحدى إلى قبره الزاكي نجائبه

وخلد الله ملك المستعين به ... مؤيد الامر منصورا كتائبه

إمام عدل بتقوى الله مشتمل ... في الأمر والنهي يرضيه يراقبه

مسدد الحكم، ميمون نقيبته ... مظفر العزم صدق الرأى صائبه

مشمر للتقى أذيال مجتهد ... جرار أذيال سحب الجود ساحبه

قد أوسعت أمل الراجي مكارمه ... وأحسبت رغبة العافي رغائبه

وفاز بالأمن محبورا مسالمه ... وباء بالخزى مقهورا محاربه

كم وافد آمل معهود نائله ... أثنى وأثنت بما أولى حقائبه

ومستجير بعز من مثابته ... عزت مراميه وانقادت مآربه

وجاءه الدهر يسترضيه معتذرا ... مستغفراً من وقوع الذنب تائبه

لولا الخليفة إبراهيم لانبهمت ... طرق المعالى ونال الملك غاصبه

سمت لنيل تراث المجد همته ... والملك ميراث مجد وهو غاصبه

ينميه للعز والعليا أبو حسن ... سمح الخلائق محمود ضرائبه

من آل يعقوب حسب الملك مفتخرا ... ببأب عزهم السامى تعاقبه

أطواد حلم رسا بالأرض محتده ... وزاحمت منكب الجوزا مناكبه

تحفها من مرين أبحر زخرت ... أمواجها وغمام ثار صائبه

بكل نجم لدى الهيجاء ملتهب ... ينقض وسط سماء النقع ثاقبه

أكفهم في دياجيها مطالعه ... وفي نحور أعاديهم مغاربه

يا خير من خلصت لله نيته ... في الملك أو خطب العلياء خاطبه

جـــردت والفتنـــة الـــشعواء ملبـــسة ... ســـيفا مـــن العـــزم لا تنبـــو مـــضاربه
وخـــضتها غـــير هبـــاب ولا وكـــل ... وقلمـــا أدرك المطلـــوب هائبـــه
صـــبرت نفـــسا لعقبـــى الـــصبر حامـــدة ... والـــصبر مـــذ كـــان محمـــود عواقبـــه
فلـــيهن ديـــن الهـــدى إذ كنـــت ناصـــره ... أمـــن يواليـــه أو خـــوف يجانبـــه
لازال ملكـــك والتأييـــد يخدمـــه ... تقـــضى بخفـــض مناويـــه قواضـــبه
ودمـــت فـــى نعـــم تـــضفو ملابـــسها ... فـــى ظـــل عـــز عـــلا تـــصفو مـــشاربه
ثـــم الـــصلاة علـــى خـــير البريـــة مـــا ... ســـارت إليـــه بمـــشتاق ركائبـــه

ومن موشحات ابن الخطيب المشهورة

جـــادك الغيـــث إذا الغيـــث همـــى ... يـــا زمـــان الوصـــل بالأنـــدلس
لم يكـــن وصـــلك إلا حلمـــا ... فـــى الكـــرى أو خلـــسة المختـــلس
إذ يقـــود الـــدهر أشـــتات المنـــى ... ينقـــل الخطـــو علـــى مـــا يرســـم
زمـــرا بـــين فـــرادى وثنـــا ... مثلمـــا يـــدعو الوفـــود الموســـم
والحيـــا قـــد جلـــل الـــروض ســـنا ... فثغـــور الزهـــر منـــه تبـــسم
وروى النعمـــان عـــن مـــاء الـــسما ... كيـــف يـــروى مالـــك عـــن أنـــس
فكـــساه الحـــسن ثوبـــا معلمـــا ... يزدهـــى منـــه بـــأبهى ملـــبس
فـــى ليـــال كتمـــت ســـر الهـــوى ... بالـــدجى لـــولا شمـــوس الغـــرر
مـــال نجـــم الكـــأس فيهـــا وهـــوى ... مـــستقيم الـــسير ســـعد الأثـــر
وطـــر مـــا فيـــه مـــن عيـــب ســـوى ... أنـــه مـــر كلمـــح البـــصر
حـــين لـــذ الأنـــس شـــيئا أو كمـــا ... هجـــم الـــصبح هجـــوم الحـــرس
غـــارت الـــشهب بنـــا أو ربمـــا ... أثـــرت فينـــا عيـــون النـــرجس

أى شـــن لامـــرئ قـــد خلـــصا ... فيكـــون الـــروض قـــد مكـــن فيـــه

تنهـــب الأزهـــار منـــه الفرصـــا ... أمنـــت مـــن مكـــره مـــا تتقيـــه

فـــإذا المـــاء تنـــاجى والحـــصى ... وخـــلا كـــل خليـــل بأخيـــه

تبـــصر الـــورد غيـــوراً برمـــا ... يكتـــسى مـــن غيظـــه مـــا يكتـــسى

وتـــرى الآس لبيبـــا فهمـــا ... يـــسرق الـــسمع بـــأذنى فـــرس

يـــا أهيـــل الحـــى مـــن وادى الغـــضا ... وبقلبـــى ســـكن أنـــتم بـــه

ضـــاق عـــن وجـــدى بكـــم رحـــب الفـــضا ... لا أبـــالى شـــرقه مـــن غربـــه

فأعيـــدوا عهـــد أنـــس قـــد مـــضى ... تعتقـــوا عـــانيكم مـــن كربـــه

واتقـــوا الله وأحيـــوا مغرمـــا ... يتلاشـــى نفـــسا فـــى نفـــس

حـــبس القلـــب علـــيكم كرمـــا ... أفترضـــون عفـــاء الحـــبس

وبقلبـــى مـــنكم مقـــترب ... بأحاديـــث المنـــى وهـــو بعيـــد

قمـــر أطلـــع منـــه المغـــرب ... شـــقوة المغـــرى بـــه وهـــو ســـعيد

قـــد تـــساوى محـــسن أو مـــذنب ... فـــى هـــواه بـــين وعـــد ووعيـــد

ســـاحر المقلـــة معـــسول اللمـــى ... جـــال فـــى الـــنفس مجـــال الـــنفس

ســـدد الـــسهم وسمـــى ورمـــى ... ففـــؤادى نهبـــة المفـــترس

إن يكـــن جـــار وخـــاب الأمـــل ... وفـــؤاد الـــصب بالـــشوق يـــذوب

فهـــو للـــنفس حبيـــب أول ... لـــيس فـــى الحـــبّ لمحبـــوب ذنـــوب

أمـــره معتمـــل ممتثـــل ... فـــى ضـــلوع قـــد براهـــا وقلـــوب

حكـــم اللحـــظ بهـــا فاحتكمـــا ... لم يراقـــب فـــى ضـــعاف الأنفـــس

منـــصف المظلـــوم ممـــن ظلمـــا ... ومجـــازى الـــبر منهـــا والمـــسى

مـــا لقلبـــى كلمـــا هبـــت صـــبا ... عـــاده عيـــد مـــن الـــشوق جديـــد
كـــان فـــى اللـــوح لـــه مكتتبـــا ... قولـــه : "إن عـــذابى لـــشديد"
جلـــب الهـــم لـــه والوصـــبا ... فهـــو للأشـــجان فـــى جهـــد جهيـــد
لاعـــج فـــى أضـــلعى قـــد أضـــرما ... فهـــى نـــار فـــى هـــشيم اليـــبس
لم يـــدع فـــى مهجتـــى إلا ذمـــا ... كبقـــاء الـــصبح بعـــد الغلـــس
ســـلمى يـــا نفـــس فـــى حكـــم القـــضا ... واعمـــرى الوقـــت برجعـــى ومتـــاب
دعـــك مـــن ذكـــرى زمـــان قـــد مـــضى ... بـــين عتبـــى قـــد تقـــضت وعتـــاب
واصـــر فـــى القـــول إلى المـــولى الرضـــى ... ملـــهم التوفيـــق فـــى أم الكتـــاب
الكـــريم المنتهـــى والمنتمـــى ... أســـد الـــسرج وبـــدر المجلـــس
ينـــزل النـــصر عليـــه مثلمـــا ... ينـــزل الـــوحى بـــروح القـــدس

إلى هذا الحد انتهى ابن خلدون من موشحة لسان الدين، ولا أدرى لم لم يكملها، وتمامها قوله :

مـــصطفى الله سمـــى المـــصطفى ... الغنـــى بـــالله عـــن كـــل أحـــد
مـــن إذا عقـــد العهـــد وفـــى ... وإذا مـــا فـــتح الخطـــب عقـــد
مـــن بنـــى قـــيس بـــن ســـعد وكفـــى ... حيـــث بيـــت النـــصر مرفـــوع العمـــد
حيـــث بيـــت النـــصر محمـــى الحمـــى ... وجنـــى الفـــضل زكـــى المغـــرس
والهـــوى ظـــل ظليـــل خيمـــا ... والنـــدى هـــب إلى المغـــترس
هاكهـــا يـــا ســـبط أنـــصار العـــلا ... والـــذى إن عثـــر الـــدهر أقـــال
غـــادة ألبـــسها الحـــسن مـــلا ... تبهـــر العـــين جـــلاء وصـــقال

عارضت لفظا ومعنى وحلى ... قول من أنطقه الحب فقال :

"هل درى ظبي الحمى أن قد حمى ... قلب صب حله عن مكنس"

"فهو في خفق وحر مثلما ... لعبت ريح الصبا بالقبس"

ومن شعر ابن عربى :

نهضت إلى نفس لأعرف خالقي ... كما جاء في التنزيل والسنة المثلى

فلم أر إلا العجز لم أر غيره ... فأعرضت عنه وارتحلت إلى المجلى

على رفرف الياقوت والدر قاصدا ... وذلك عند العقل غايتنا السفلى

فلما بدت للعين سبحة ذاته ... سجدت لها ذلاً فقالت لنا أهلا

وشالت ستور الحجب عن عين عقلنا ... فشاهدت مرئياً بلا مقلة نجلا

وقلت لها من أنت قالت وجودكم ... فكنت لها أهلاً وكانت لنا بعلا

فأولدني من كل سر محجب ... وأوردني من ذلك المورد الأجلى

لذاك أحب المصطفى سيد الورى ... كما جاء بالحلواء والعسل الأحلى

وقوله :

ما أنا اليوم لنفسي ... قد مضى عقلي وحسي

ومتى رأيت شخصاً ... وهو من شكلي وجنسي

نفرت منه طباعي ... ومضى عني أنسي

أبغض الخلق إلينا ... من تسمى لي بإنسي

فاعذروني يا عدايا ... أنا في أضيق حبسي

وقوله :

إنـــي تعـــوذت بـــي منـــي فـــإن لنـــا ... النـــور بـــالروح والإظـــلام بالجـــسد
ولا أزال كـــذا مـــا دام مـــسكننا ... فلـــو ترحلـــت عـــن أهـــل وعـــن بلـــد
وجـــدت فيـــه ضـــياء لا ظـــلام بـــه ... يغنـــي عـــن الأهـــل والأمـــوال والولـــد

ومن شعر ابن عربى الغزلى الطللى :

بـــأبى الغـــصون المـــائلات عواطفـــا ... العاطفـــات علـــى الخـــدود ســـوالفا
المرســـلات مـــن الـــشعور غـــدايرا ... الليئـــات معاقـــدا ومعاطفـــا
الـــساحبات مـــن الـــدلال ذلاذلا ... اللابـــسات مـــن الجمـــال مطارفـــا
البـــاخلات بحـــسنهن صـــيانة ... الواهبـــات متالـــدًا ومطارفـــا
المونقـــات مـــضاحكاً ومباسمـــاً ... الطيبـــات مقـــبلاً ومراشـــفا
الناعمـــات مجـــرداً والكاعبـــات ... منهـــدا والمهـــديات ظرايفـــا
الخالبـــات بكـــل ســـحر معجـــب ... عنـــد الحـــديث مـــسامعا ولطائفـــا
الـــساترات مـــن الحيـــاء محاســـنا ... تـــسبى بهـــا القلـــب التقـــى الخائفـــا
المبـــديات مـــن الثغـــور لآليـــاً ... تـــشفى بريقتهـــا ضـــعيفا تالفـــا
الراميـــات مـــن العيـــون رواشـــقاً ... قلبـــا خـــبيرا بـــالحروب مثاقفـــا
المطلعـــات مـــن الجيـــوب أهلـــة ... لا تلفـــين مـــع التمـــام كواســـفا
المنـــشيات مـــن الـــدموع ســـحائبا ... المـــسمعات مـــن الـــزفير قواصـــفا
يـــا صـــاحبى بمهجتـــى خمـــصانة ... أســـدت إلى أياديـــا وعوارفـــا

نظمت نظام الشمل فهي نظامنا ... عربية عجماء تلهى العارفا
مهما رنت سلت عليك صوارها ... ويريك مبسمها بريقا خاطفا
يا صاحبى قفا بأكناف الحمى ... من حاجر يا صاحبى قفا قفا
حتى أسائل أين سارت عيسهم ... فقد اقتحمت معاطبا ومتالفا
ومعالما ومجاهلا بشملة ... تشكو الوجى وسباسبا وتنايفا
حتى وقفت بها برملة حاجر ... فرأيت نوقاً بالأثيل خوالفا
يقتادها قمر عليه مهابة ... فطويت من حذر عليه شراسفا
قمر تعرض في الطواف فلم أكن ... بسواه عند طوافه بي طائفا
يمحو بفاضل برده آثاره ... فتحار لو كنت الدليل القائفا

ومن شعر الششترى :

لقد تِهتُ عُجْباً بالتجرد والفقر ... فلم أندرج تحت الزمان ولا الدهر
وجاءت لقلبي نفحة قدسية ... فغبت بها عن عالم الخلق والأمر
طويت بساط الكون والطيُّ نشرُه ... وما القصد إلا الترك للطي والنشر
غمّضت عين القلب غير مطلق ... فألفيتني ذاك الملقب بالغير
وصلت لمن لم تنفصل عنه لحظة ... ونزهت من أعني عن الوصل والهجر
وما الوصف إلا دونه غير أنني ... أريد به التشبيب عن بعض ما أدرى
وذلك مثل الصوت أيقظ نائماً ... فأبصر أمرًا جلَّ عن ضابط الحصر
فقلت له الأسماء تبغي بيانه ... فكانت له الألفاظ ستراً على ستر

وكذلك قوله فى موشحة :

لـــــو كنـــــت ذا اتـــــصال ... أبـــــصرت للعـــــلا

نـــــوراً بـــــلا مثـــــال ... وإن تمـــــثّلا

حـــــال المحـــــب نـــــاطق ... بحـــــال أمـــــره

مـــــن ميـــــز الرقـــــائق ... بعـــــين فكـــــره

لاحـــــت لـــــه الحقـــــائق ... مـــــن غيـــــب ســـــره

وكـــــان ذا جمـــــال ... مـــــن نـــــوره انجلـــــى

مـــــن ذلـــــك الجمـــــال ... والنـــــور والحُـــــلا

أتـــــدعى هوانـــــا ... وتظهـــــر الخـــــلاف

وتبتغـــــى رضـــــانا ... مـــــا منـــــك ذا انتـــــصاف

فخـــــلّ مَـــــن ســـــوانا ... تـــــسقى الرضـــــا ارتـــــشاف

يـــــا طالـــــب الوصـــــال ... مـــــن ســـــيد عـــــلا

إن الوصـــــال غـــــالى ... ومـــــا فـــــلا حـــــلا

عـــــشاقنا فنـــــون ... كـــــل لـــــه مقـــــام

هـــــذا بـــــه جنـــــون ... وذا بـــــه هيـــــام

وســـــرنا المـــــصون ... قـــــد أعجـــــز الأنـــــام

فـــــدع مـــــن المحـــــال ... واخـــــضع تـــــذلّلا

لـــــذلك الجمـــــال ... والنـــــور والحُـــــلا

مـــــا عـــــزة مـــــا ليلـــــى ... مـــــا الخيـــــف مـــــا الحطـــــيم

مـــــا فـــــى الوجـــــود إلا ... إلهنـــــا القـــــديم

للطـــــور قـــــد تجلـــــى وكلـــــم الكلـــــيم

قـــــد لجّ فـــــى الســـــؤال مـــــذ لاح وانجلـــــى

نـــــورٌ بـــــلا مثـــــال وإن تمـــــثلا

هـــــواك فـــــى الـــــضمير والقلـــــب لا يـــــزول

بالـــــمصطفى البـــــشير الـــــسيد الرســـــول

اصـــــفح عـــــن الفقـــــير واسمـــــع لمـــــا يقـــــول

يـــــا منـــــزل الوصـــــال حُيّيـــــتَ منـــــزلا

فمـــــا أنـــــا بـــــسالى عنـــــه وإن ســـــلا

أهم الخصائص الأسلوبية لشعر هذا العصر :

(١) الاعتصام بالتراث العربى الكلاسيكى للمحافظة على الذات وحماية الهوية، وبالتالى سنرى القصيدة الطويلة الكلاسيكية من جديد تسيطر على بانوراما الشعر الغرناطى.

(٢) اللجوء لرسول الله (ص) فى هذه الملمة، فتكثر قصائد المدائح النبوية ويتم التفنن فيها بكل وجه من وجوه التفنن مثل التسميط والمزاوجة بين أشطار من قصائد مشهورة وبين إبداع الشاعر حيث تصبح الأشطار الأولى لشاعر قديم والثانية للشاعر المدّاح الغرناطى، أيضا تم تطوير الموشحات لتستوعب تلك المدائح.

(٣) غلبة شعر المدح التقليدى وكثرته، وذلك فى مدح ملوك وأمراء وقواد بنى نصر (الأسرة الحاكمة فى غرناطة).

(٤) اقتراب الموشحة من القصيدة، والعكس صحيح، فى مزج عبقرى بين القصيدة الكلاسيكية والموشحة الأندلسية، وكأنما هكذا تتحدد هوية المواطن الغرناطى، فهو أندلسى وعربى أصيل فى آن واحد.

(٥) استمرار تيار شعر الطبيعة بقوة، وإن غلبت عليه الطبيعة الصناعية التى هى من صنع الإنسان الغرناطى، والحقيقة أنها طبيعة صناعية أقرب للطبيعة العذراء، فالشاعر هنا يتحدث عن قصور تحيط بها الجنّات وتجرى من تحتها الأنهار والبحيرات، وتتدفق فى أرجائها مياه النوافير من فم أسود وتماثيل متعددة الانتساب. إن الشعر فى الطبيعة الغرناطية (فن على فن)، أى أنه فن قولى يستلهم الفن المعمارى، وفن تخطيط الحدائق والقصور والمدن. إن الشاعر يقدم الجمال الأدبى حول الجمال الطبيعى الفنّى، حتى امتزجت الكلمة بالطبيعة الفنية (المعمار والحدائق ..الخ)، كما رأينا لابن زمرك ديوانا على جدران الحمراء.

ومع امتداد هذا التيار الخفاجى (نسبة لابن خفاجة على حد تعبير حازم القرطاجنى)، امتد تقليد المقطوعات السردية التى رأيناها تبدأ رائعة عند الطليق المروانى (فى آخر العصر الأموى) وتصل ذروتها عند ابن الزقاق وأستاذه ابن خفاجة ثم تستمر غالبا فى تظرف سمج فى عصر الموحدين، لتعود لها زهوتها فى العصر الغرناطى، لكن تحتل مكانة ثانوية بجوار القصائد بعد أن كانت تحتل مكانة أولى فى عصر الطوائف وعصر المرابطين.

(٦) استمرار تيار شعر التصوف، بالطبع لأن التصوف أيضا ملاذ للمأزومين، وطريقة ميتافيزيقية لمواجهة الكوارث، وأيضا لممارسة دور فى الحياة، ولو كان دورا ذاتياً وسلبياً . ولهذا فإن ظهور التصوف مع بداية حكم المرابطين الذى

حرم الأندلسيين من حق حكم بلادهم أمر له مغزى يكشف عن دور التصوف، أيضا فى ظل الكوارث يبحث الناس عن المعجزة التى قد تتمثل فى كرامات الأولياء، والأولياء هم أقطاب التصوف الأحياء منهم والأموات.

وقد أشرنا فى حديثنا عن الموحدين إلى عزلة بعض الشعراء مثل الرصافى البلنسى، كما أشرنا إلى اتجاه عدد من الشعراء إلى التصوف، وبعد أبى العباس بن العريف الشيخ المؤسس فى عصر المرابطين يظهر المتصوفة العظام أمثال ابن عربى وأبى الحسن الششترى وابن سبعين. ولابن عربى كمية هائلة من الأشعار فى ثنايا كتبه بصفة خاصة كتاب الفتوحات المكية، وهو موسوعة من أربعة مجلدات ضخمة، فضلا عن ديوانين هما "ديوان ترجمان الأشواق"، و"الديوان الكبير". والترجمان يعد من أرق دواوين الغزل فى الشعر العربى كله، وهو بضع عشرات من "القصائد المقطوعات" أو "القصائد القصيرة"، وكلها فى بكاء الأطلال، ولكن الأطلال هنا ملاعب رومانسية تبعث فى أرجائها الجميلات يحطن بمحبوبة أسطورية يطاردها الشاعر بعواطفه ودموعه وتوسلاته. وهذا أمر تصوفى فالمحبوبة رمز للذات الإلهية والجميلات أسماؤها الحسنى، لكنه أيضاً أمر أندلسى ، فمن الخصائص الأسلوبية العامة للشعر الأندلسى هى استلهام المقدمات الطللية للقصائد العربية الجاهلية لإنشاء قصائد طلية أو مقطوعات موضوعها الطلل، وقد بدأ ذلك مع دمار قرطبة وخراب عمارتها وقصورها البديعة بحرائق الفتنة (الحرب الأهلية) التى دبت فى آخر القرن الرابع الهجرى وأول الحادى عشر الميلادى وأسفرت عن سقوط الدولة الأموية وتمزق الأندلس إلى ممالك طوائف. من ثمّ فابن عربى أندلسى فى هذا، لكنه يقدم لنا ديوانا فريدا فى نوعه فهو الديوان الوحيد الذى لا يحوى إلا قصائد طللية، لكنها غزلية ومتفائلة، فهى تفتح أفقا نحو الملأ

الأعلى. أما الديوان الكبير لابن عربى فهو ديوان تصوفى عقائدى، تضعف الشاعرية لحساب الفكرة الصوفية، ماعدا بعض الموشحات التى تحمل بعض العاطفة.

والشاعر الآخر المثير للاهتمام هو أبو الحسن الششترى الذى خلط القصيدة التقليدية بالموشحة بالزجل فى مزج فنى لا يجرؤ عليه إلا متصوف أندلسى. ويستمر تيار التصوف حتى آخر العهد الغرناطى، بل يمتد بعد سقوط غرناطة فى المغرب الذى ما زال للتصوف امبراطورية فيه تقدم عزاءً وأملا لفقراء المغرب.